الإمام الحسين عليه السلام تاريخيًا

بين القراءة الفلسفية والسرد الاعتباطي عند ابن الأثير



باسم الماضي الحسناوي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ على محمّد وآل محمّد



الإمام الحسين عليه السلام تاريخيًا بين القراءة الفلسفية والسرد الاعتباطي عند ابن الأثير

المؤلف: باسم الماضي الحسناوي

عدد الصفحات: ٥٢

تاريخ النشر: ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

النوع: نصّي إلكتروني



الفهرس



الفصل الأول

القراءة الفلسفية للموت في نهضة الإمام الحسين عليه السلام

فلسفة الموت بين الشعور بالعدمية والتماس الخلود

بما أنَّ الإنسان كائنٌ يموت، وهو على وعيٍ تامٍّ بهذه النتيجة المأساوية دون الكائنات الحيَّة الأخرى، بحكم أنه الحيوان الوحيد الذي خصَّه الله سبحانه بالنطق، فكان مفكِّراً، وكان واعياً بالمبتدأ والمآل بالنسبة إلى كلِّ ما يغلِّف وجوده الشبحيَّ المتردِّد بين التحقُّق والعدم، من التفاصيل الصغيرة، والجزئيات الدقيقة، ممّا هو ذو علاقةٍ وطيدةٍ بالمصير.

أقول: بما أنه الكائن الحيُّ الوحيد الذي هو على هذه الصفة، فلا بدَّ أن يكون موقفه من الحياة المؤقَّتة القصيرة المليئة بمختلف أصناف المتاعب والمصاعب والكدورات موقفاً ينبئ عن وجود ثلاثِ مجموعاتٍ من البشر، تتخذ كلُّ مجموعةٍ منها موقفاً فرعياً لا بدَّ أن يكون مندرجاً آخر الأمر في الموقف الرئيس الشامل لكلِّ تلك المواقف الفرعية الثلاثة، وما يمكن أن يتفرَّع عنها أيضاً من المواقف الفرعية الأصغر منها، والتي لن نتحدَّث عنها بالتفصيل في هذه المقاربة الفلسفية الخاصَّة بالإمام الحسين عليه السلام عليه السلام.

ليس ذلك الموقف الرئيس الشامل من الحياة المؤقَّتة المحصورة بين العدم السابق والعدم اللاحق إلا الشعور العامَّ بأنَّ المأساة الوجودية التي تغلِّف حياة الإنسان لا بدَّ – بوصفها إشكاليةً فلسفيةً معقَّدةً بحاجةٍ إلى الحلّ– أن تجد طريقها وهي آخذةٌ بيد هذا الإنسان إلى الشعور النهائيِّ – سواءٌ أكان حقيقياً أم مزيَّفاً– بالخلاص.

الموقف الرئيس الشامل

يتمثَّل هذا الموقف الذي يشكِّل أُسًّا لكلِّ المواقف الفرعية الأخرى في هذا المبدأ الذي يقضي بأن يحقِّق الإنسان حرِّيَّته، أي أن يجد لنفسه موقعاً خارج نطاق الحتمية أو الجبرية البايلوجية التي حكمت على نفسه بالوجود المؤقَّت بين فنائين اثنين، فناء ما قبل الولادة وفناء ما بعدها، ولا ضير في أن تكون تلك الحرِّيَّة المكتسبة واقعيةً موضوعيةً منطلقةً من الفهم المعمَّق لناموس الوجود، المبنيِّ على أساس أنَّ الضرورة أو الحتمية التي تغلِّف العالم مجوَّفةٌ من الداخل بما يسمح بوجود أصنافٍ لا نهاية لها من الحريات المنشودة، أم كانت حريةً مكتسبةً على الصعيد الطوبائيِّ أو السيكولوجيِّ الذي ربما اعتُبر في عرف المجموعات الكبيرة من البشر هو الأهمّ، بل قل هو الوحيد الذي يستحقُّ من الإنسان التفضيل والإهتمام، فإذا ما شعر المرء – ولو خداعاً- بأنه حرٌّ فهذا وحده يكفي، حتى لو كان واقع الحال يشير بحسب الدراسة والتحليل إلى النقيض تماماً من هذه النتيجة.

المجموعات الثلاث من المواقف المحتملة المنضوية تحت الموقف الرئيس الشامل

- الأوَّل: الموقف الفلسفيُّ العقليّ

في هذا الموقف يقطع المرء خطواتٍ في التفكير حول معنى الحياة وفلسفتها، حتى إذا ما اكتشف حقيقة أنها مؤقتةٌ فعلاً، وأنها بناءً على هذا لا يمكن أن تكون مصدر سعادةٍ

واقعيةٍ للإنسان، أو كما قال ميرلوبونتي «إنَّ عمل الإنسان الوحيد هو بناء الموت»[١] فإنه ينتقل إلى المرحلة الثانية التي يفكِّر فيها بنفسه، فلا يمكن له الإستمرار بالحياة طبقاً لهذا المعنى من جهةٍ، ولا يمكن له أن يقلب نظام العالم، إذ هو نظامٌ مصمَّمٌ طبقاً لجبريةٍ لا دخل للإنسان فيها، فالموت هو طرفا المعادلة التي تنتج العالم كلَّه، بما فيه الكائنات الحيَّة جميعها، بل حتى الجمادات تحيى وتموت حياةً وموتاً مناسباً لتركيبها ونظامها الداخليِّ الذي يحكم وجودها كلَّه، فلا بدَّ إذاً من التفكير في قلب معنى الفناء إلى ضدِّه من جهةٍ، ولا بدَّ أيضاً من التفكير في اجتراح الطريقة الناجعة التي تجعل الحياة مشحونةً بالمعنى المضادِّ لمعنى الفناء، فلا تكفي الرغبة وحدها في تحويل معنى الفناء إلى ما يضادُّه من معاني ودلالات الخلود كما هو واضح.

من هنا تبدأ رحلة العقل الإنسانيِّ في سبر أغوار العالم لاستخلاص المعنى، ومن هنا تكون مهمَّة البحث عن هذا المعنى الغامض والمعقَّد في غاية الصعوبة، إلى حدِّ الإرتقاء بها إلى معنى المغامرة، وأيَّة مغامرةٍ أصعب من هذه، وأية رحلةٍ في خبايا العالم أحفل بالمخاطر والإخفاقات المتوالية قبل التوصُّل إلى بارقة أملٍ في النجاح من هذه الرحلة التي استغرقت أعمار الفلاسفة والحكماء والمتصوِّفة، فضلاً عن كافَّة من اشتغل بأمر المصير من كلِّ أصناف ومجموعات البشر.

---

[١] نحو أخلاق وجودية، ٦.

لكنَّ العقل يتعثَّر، كما إنه يخطئ كثيراً بالرغم من أنه قادرٌ على تصحيح أخطائه في النهاية، لكن ليس بلا ثمنٍ طبعاً، بل الثمن باهضٌ غالباً، لأنه يتطلَّب منه أن ينزل بالكثير من أحكامه الخاطئة إلى الواقع، سواءٌ كان على مستوى عالم التصوُّر والذهن، أم على مستوى عالم التصديق والخارج، فيطبِّقها عليه، فينتج الخطأ الواحد أخطاء أخرى مشابهةً تتأسَّس على ذلك الخطأ الأوَّل، وكلُّ واحدٍ من هذه الأخطاء المتولِّدة الجديدة ينتج أخطاء من فصيلته وسنخه، حتى تتراكم الأخطاء، فتتحوَّل إلى حجبٍ كثيفةٍ تجعل من رغبة العقل في تصحيح أحكامه الخاطئة عمليةً صعبةً للغاية إن لم تكن مستحيلةً، لأنَّ الأخطاء ذاتها تتحوَّل إلى بنيةٍ راسخةٍ يؤطَّر بها عقل الإنسان، فلا يعود من السهل عليه النظر إلى هذا الإطار الذي يفرض حصاراً على العقل من كلِّ الجهات، بوصفه خطأً يجب أن يُصحَّحَ أو أن يزول.

ومن هنا حاجة العقل إلى الإستعانة بمددٍ آخر من أصله الذي انبثق منه، أي أنه بحاجةٍ إلى مددٍ من الله الذي يستطيع العقل أن يهتدي به إلى ضرورة وجوده بالنسبة لهذا العالم، وبما أنَّ الله لا يمكن أن يتَّصف بما يضادُّ اللطف المطلق، فإنَّ المتوقَّع منه في كلِّ حينٍ أن يفيض على العقل بحسب استعداده اللائق من جوده وكرمه، وستكون النبوَّة هي أجلى مصاديق هذا اللطف بطبيعة الحال.

ها هنا سيجد العقل راحته، ومن هاهنا سيحقِّق أمنيته في أن تنقلب العبثية والعدمية اللتان يفرضهما الشعور بالفناء إلى نظامٍ إلهيٍّ محكمٍ ذي مغزىً، فليس في الكون سنتمترٌ واحدٌ خالٍ من حكمة الله، كما إنَّ وجود الإنسان محكومٌ من النشأة إلى نهاية الحياة بما يجعل الإنسان أمام مسؤوليته الكبرى في الوجود، والتي لا تندُّ عن التناغم الكامل مع ذلك النظام الذي يحكم العالم بأسره، بذلك المضمون الدقيق الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في قوله:

أتحسب أنَّك جرمٌ صغيرٌ   وفيك انطوى العالم الأكبرُ؟!

العالم كلُّه مرآة الله، والإنسان أيضاً مرآة الله، فهل هناك من مكانٍ للعبث بالنسبة إلى أيِّما شيءٍ يكون مرآة الربِّ سبحانه وتعالى، ناهيك عن أن تكون المرآة إنما هي ذلك الكائن الذي أسجد الله سبحانه له الملائكة، وعاقب مخلوقاً عبد الله آلاف السنين لا يُدرى أمن سنيِّ الدنيا هي أم من سنيِّ الآخرة، لأنه استكبر في لحظةٍ فشعر بأفضليَّته عليه، فكان مصيرَه اللعن الأبديّ، والخلود في جهنَّم في نهاية المطاف.

إنَّ هذا السبيل المنطلق من خطوةٍ عقليةٍ أولى استعانت بلطف الله، وانتهى إلى غايته في أن يكون الإنسان والعالم معه مرآة الله سبحانه وتعالى هو السبيل الوحيد الذي ينجي الإنسان من الشعور بالعدمية والعبث، ويجعل مجريات العالم والتأريخ كلَّها تبدو في عين

الإنسان مظهراً من مظاهر الحكمة الإلهية التي لا يمكن أن يكون أيُّ جزءٍ منها خالياً من المعنى الكبير في كلِّ الأحوال.

هذا بالنسبة إلى الحركة العقلية العادية التي يتصف بها ذوو الحسِّ السليم من البشر، أما بالنسبة إلى النخبة المصطفاة من هذه الفئة، فهي تترقى إلى مستوياتٍ أعلى من الكمال بطبيعة الحال، تترقى حتى تبلغ قاب قوسين أو أدنى من عرش الحقيقة الإلهية، لأنها كانت عند الله منذ الأزل أوراقاً في شجرة الخلد وملكٍ لا يفنى، فمن تعهَّدها بالرعاية فاز ونجا، ومن اعتدى عليها خاب وهوى، وهم آل بيت النبيِّ صلى الله عليه وآله على وجه التحديد.

- الثاني: الموقفُ السيكلوجيّ

إنَّ البعد السيكلوجيَّ بعدٌ هامٌّ وأصيلٌ في الذات الإنسانية، فليس الإنسان مكوَّناً من عقلٍ فقط، بل ربما كان جزءٌ كبيرٌ من العقل مكوَّناً من تلك المادَّة السيكلوجية وإن لم يشعر الإنسان بذلك، ولهذا فإنَّ العقل غالباً ما يكون مجرَّد قالبٍ تتأطَّر فيها المادَّة السيكلوجية، أي أنَّ العقل يقوم بمنهجة المادَّة الملقاة في قالبه بغضِّ النظر عن نوعها أو صنفها أو جنسها، ولهذا السبب أيضاً تجد أنَّ أحكام الناس تختلف من شخصٍ إلى آخر بشأن العديد من الموضوعات المشتركة، فبالرغم من أنَّ موضوعات الحكم واحدةٌ بين

أفراد طائفةٍ من البشر، ترى أنَّ أحكامهم متنوِّعةٌ، أو متضاربةٌ، أو متناقضةٌ، وإنَّ هذا لهو الدليل الناصع على صحَّة استنتاجنا السابق، إذ تكون للأحكام المسبقة المتأثِّرة بالعديد من الجوانب السيكلوجية، الأثر الأكبر في تكوين أحكام البشر.

من هنا فإنَّ عدداً كبيراً من المفكرين الغرب، وتبعتهم طائفةٌ كبيرةٌ من المثقفين في الشرق الإسلاميّ، لم يكن همُّهم أن تكون أفكارهم عن الحياة والموت والسعادة والشقاوة وسائر المعاني التي لها ارتباطٌ بالنفس مطابقةً للواقع الموضوعيِّ لها، بل ربما قالوا بفقدان الواقع الموضوعيِّ بالنسبة إلى هذه المعاني من الأساس.

ليس المهمُّ إلا شيئاً واحداً لا غير، وهو الإنعكاس الموجود في النفس عن هذه المعاني، فإذا تصوَّرت النفس وجود السعادة في عملٍ معينٍ كان مبعثاً للسعادة بالفعل، وما شعرت به النفس شعوراً ينمُّ عن وجود الشقاوة فيه كان مصدراً للشقاء بالفعل وهكذا. من دون أن يكون للتفكير الموضوعيِّ دخلٌ في حسم التنوُّع والإختلاف في الحالات الشعورية المختلفة الموجودة في نفوس الأفراد المختلفين، وبناءً على هذا فإنَّ الموقف من الحياة ووجود المغزى فيها متوقِّفٌ على الحالة السيكلوجية للفرد، فهي المرجعية الوحيدة التي تقرِّر أنَّ العمل الفلانيَّ عملٌ ذو مغزى، وأنَّ نمط الحياة المعيَّن جديرٌ بالإهتمام، وأنَّ أسلوب الموت المشار إليه في الموقف الإنسانيِّ المعين لا يستحقُّ أن يكون أسلوباً يحتذى وهكذا. ولهذا فإنَّ الفلاسفة الوجوديين اشتهروا بهذه المواقف التي نمَّت عن شعورهم

العبثيِّ بالحياة، حتى أنَّ عدداً كبيراً منهم قرَّر أن يموت انتحاراً في نهاية الأمر، ليحسم هذه الدورة الكئيبة للحياة الإنسانية الخالية في رأيهم من أيِّ مغزىً معقولٍ، كما إنها فاقدةٌ للهدف حتى النخاع.

عندما يكون الموقف السكلوجيُّ هو المحدِّد الأوَّل والأخير لمعنى الحياة والموت والسعادة والشقاء والخير والشرِّ وما إلى ذلك من الأمور، من دون أن تكون هناك مرجعيةٌ أخلاقيةٌ أو فلسفيةٌ أو دينيةٌ أخرى يتأطر به أوَّلاً، ويبرمج نفسه على أساسه، فإنَّ النتائج ستكون كارثيةً على هذا الصعيد، بمعنى أنَّ الحياة ستبدو كما لو أنها شيءٌ ما فائضٌ عن حاجة هذا الشعور السيكلوجيِّ ذاته، وسيكون من الصواب تبعاً لهذه النتيجة أن تكون الحياة محفوفةً بأصنافٍ شتى من المآسي والملذات، إلا أنها تتتابع على الإنسان من دون أن تكون منتظمةً في سلكٍ ما من المعقولية أو الهدفية أو الغائية التي تبرِّر كلَّ ذلك، وتجعله محتملاً ومقبولاً في نظر الذات، وسيكون الموقف المعقول اتخاذه في هذه الحالة هو وضع نهايةٍ سريعةٍ لهذا الوضع السيكلوجيِّ المتأزم بطريقةٍ مسانخةٍ له من جهة عبثيتها ولامسؤوليتها وعدميتها المطلقة، ولن تكون هذه الطريقة التي تتمتَّع بكلِّ هذه المواصفات إلا الإنتحار.

- الثالث: الموقف الأبيقوريُّ البيوهيميُّ العابث

هذا الموقف هو موقفٌ هاربٌ في الحقيقة، أي إنه لا يشاء أن يواجه المشكل بالتفكير الفلسفيِّ الصبور على طرح الإشكاليات الأنطلوجية والإجابة عليها، بل هو يكتفي بمشاهدة ظاهر الأمر، حيث يعيش الناس حياةً مؤقتةً ثمَّ سرعان ما يختفون عن مشهد العالم بالموت، وهم يتألمون لهذه الحالة بالطبع، إلا أنهم لا يشعرون بأنَّ الوجود الإنسانيَّ في الحياة هو محض مأساة، لأنه مغلَّفٌ بالعدمية والعبث نتيجة فقدان المعنى كما هو الموقف الفلسفيُّ العابث لأصحاب الموقف الثاني، بل هم ينظرون إلى الأمر بانتهازيةٍ مطلقةٍ، فإذ تكون الحياة فاقدةً للمعنى بسبب شيءٍ واحدٍ، وهو أنها توجد وجوداً مؤقتاً سريعاً ثمَّ تضمحلُّ فتزول، فإنهم يقرِّرون أن يعيشوا هذا الجزء اليسير من الحياة ويملأوه بأعلى مقدارٍ ممكنٍ من الملذات، فلو كانت الحياة مستمرَّةً مثلاً لما كان لها من مبرِّرٍ إلا أن تكون وجوداً مبهجاً بوجود هذه الملذات والشهوات الحسية والمادية، فليكن الحلُّ إذن متمثلاً في أن يركِّز المرء تركيزاً أكبر على أن يحيى حياةً مفعمةً بالملذات والشهوات إلى أقصى حدّ، كما لو أنه عاش حياةً كاملةً أطول بأضعاف المرات من مدَّة الحياة المحدودة هذه، فإذا نجح في تحقيق هذا المسعى نجح باقتناص معنى الحياة أيضاً، وليأتِ الموت بعد ذلك، فليختم هذا الوجود المبهج بنهايته المأساوية المرعبة.

إنَّ كثيراً من الفنانين والشعراء على وجه الخصوص عاشوا هذا النمط من الحياة وعدوه حلاً لشعورهم بمأساة الحياة نتيجة وجودها القصير المؤقَّت، وهم لا يختلفون عن

الأعداد الغفيرة من الناس ذوي التفكير السطحيِّ الساذج إلا بكونهم حاملين لمواهب تمنحهم القدرة على الصياغات الفنية لذات الموقف التافه، لأنَّ هؤلاء لا يحملون قدرة الفلاسفة على الإحساس المنطقيِّ والفلسفيِّ بالعالم ولو بمستوى أصحاب الموقف الثاني، بل هم ذوو إمكانياتٍ فلسفيةٍ ومنطقيةٍ وعقليةٍ محدودةٍ كما تخبرنا العديد من الوقائع، مضافاً إلى أنهم متقلِّبون في أمزجتهم ومقارباتهم للعالم بحسب اللحظة الشعورية والوجدانية التي تحكمهم أثناء ممارسة مواهبهم في صياغة الأعمال الفنية والشعرية.

الخلاصة من المواقف الثلاثة

من خلال ما ذكرناه آنفاً تتضح الحقيقة التي مفادها أنَّ الإنسان كائنٌ شقيٌّ بالموت من جهةٍ، وسعيدٌ به من جهةٍ أخرى، فإذا أفلح في أن يجد منهجاً عقلياً أو فلسفياً يستبطن به معنى الموت ومعنى الحياة، ويعرف حقيقتهما، وأنهما إنما وجدا لتكون معادلة الكمال الإنسانيِّ متحقِّقةً، فإنه من الذين سيسعدون بتأمُّل معنى الموت، وسيجتهد كثيراً حتى يهتدي إلى أسلوبٍ للموت يكون أقرب شيءٍ إلى المعنى الجوهريِّ المركَّز للحياة، وسيكون الموت هو الكفّ الكريمة المعطاء التي تمنح الحياة الأبدية الخالدة، وإن كان العكس، فليس الموت وحده هو ما يكون بغيضاً عند الإنسان في هذه الحالة، بل الغريب

أنَّ الحياة نفسها تتبغَّض للإنسان حتى يمقتها ويراها مجالاً للشعور بالعدمية والعبث لا غير، وها هنا بالضبط يكمن معنى المفارقة.

الإمام الحسين عليه السلام في الميزان الفلسفيّ للشهادة

تطرَّقنا إلى المواقف الثلاثة السابقة، لنشير إلى هذه النتيجة، وهي أنَّ للموت فلسفةً في الإسلام، وأنَّ للحياة فلسفةً كذلك، وأنَّ فلسفة الموت لا تتقاطع مع فلسفة الحياة في الرؤية القرآنية المباركة، آية ذلك أنَّ الله سبحانه يقول: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} سورة الملك.

فالموت والحياة كلاهما واقعان في مسيرة الإختبار للإنسان، حتى تظهر مكنوناته الإلهية العظيمة التي جعلها الله موجودةً فيه بوصفها استعداداتٍ أو وجوداتٍ بالقوَّة، تحتاج منه جهداً وبذلاً للطاقة المعنوية والروحية الكبيرة حتى تظهر وتتنجَّز وتصبح واقعاً، فإذا ما وصل الإنسان إلى مرتبةٍ من هذه المراتب العالية أصبح جزءاً لا يتجزَّأ من صيرورة العالم المعنوية والروحية السائرة نحو الله سبحانه، وهو بهذا السلوك وحده يحقِّق المقدار اللازم من الإنسجام مع النظام العامِّ للكون والوجودات أجمع، فإذا ما أصبح الإنسان بهذا المستوى من الإندماج بالنظام الكونيِّ العامّ، لم يعد بالإمكان مقاربة معناه بالوسائل المعروفة بالنسبة لذوي المراتب المعنوية الدنيا، إلا بأن يقال لهم ما جاء في الآيتين بعد

الآيتين السابقتين: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ* ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} سورة الملك.

الموت شقيق الحياة في الإسلام، بل قل هو وجهها الآخر، أو قل إنَّ للموت وجوداً مرآتياً بالنسبة للحياة، أي إنَّ الحياة ترى ذاتها في الموت، أو تنبع منه في بعض الأحيان بشكلٍ مباشر، فلا تحتاج إلى واسطةٍ في البين، أو يكونان معاً بمعنىً واحدٍ، إذ يكون المركَّب منهما حياةً من نمطٍ غير مألوفٍ بالنسبة إلى أغلب البشر، إلا أن يكونوا من الأنبياء أو الأوصياء أو الصديقين الكبار.

هل كان الحسين عليه السلام يخاطب خصومه في يوم عاشوراء وهو خائفٌ على نفسه وعياله مثلاً، بالرغم من أنه بشرٌ بالتأكيد، ولا يتجرَّد من حبِّ نفسه وحبِّ عياله وسائر ذويه قطعاً، لكنَّ قائمة الأولويات لدى الحسين عليه السلام تختلف في ترتيبها ونظامها عن قائمة أولوياتنا نحن وترتيبها، ولهذا فإنه قادرٌ على أن يعيش الحالة الشعورية العليا المختلفة عن حالاتنا الشعورية كلِّها، فهو يقدر أن ينظر إلى رأسه المقطوع المعلَّق على قناة الرمح ويبتسم، لأنه يشاهد الحقيقة الغائبة عنا حين نتخيَّل رؤوسنا المقطوعة وهي معلَّقةٌ على الرماح، وقل الشيء نفسه عن مشاهداته الأخرى للمآسي التي تكتنف أبناءه ونساءه وإخوانه وأصحابه وكلَّ من يمتُّ إليه بصلةٍ على الإطلاق، فهو يهنِّئهم في مقامٍ نتعجَّب

نحن من أنه يقدِّم التهنئات للصرعى والأسارى فيه، لأنه يشاهد ما لا نقدر نحن أن نكوِّن عنه صورةً في الخيال حسب، ولأنه يعيش العالم بوصفه وجهاً آخر لهذا العالم، هو الوجه المعنويُّ والروحيّ، أو هو الوجه الإلهيُّ بأدقِّ وصفٍ، وإنَّ هذه هي حقيقة العالم في نظر شخصٍ إلهيٍّ مثل الحسين عليه السلام، أما نحن فواحسرتاه على أنفسنا، إذ لا نشاهد إلا هذا الوجه الماديَّ المحدود الموصوف بأبشع الأوصاف وأدناها وأحقرها على لسان الأناس الإلهيين من طراز الحسين عليه السلام: « أيها الناس إنَّ الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناءٍ وزوالٍ متصرِّفةً بأهلها حالاً بعد حالٍ، فالمغرور من غرَّته، والشقيُّ من فتنته، فلا تغرَّنَّكم هذه الدنيا، فإنها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيِّب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمرٍ قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلَّ بكم نقمته، فنعم الربُّ ربُّنا، وبئس العبيد أنتم»[1].

موقف التاريخ من الحسين عليه السلام

كم كان الموقف محرجاً للتأريخ، ليس التأريخ المنظور فحسب، بل أعتقد أنه كان محرجاً للتأريخ غير المنظور أيضاً، أي أنَّ موقف الحسين عليه السلام من القتل كان محرجاً حتى بالنسبة للذين لم يشاركوا فيه، ولم يكونوا حاضرين في ذلك الزمان الذي قتل فيه، فمن آدم إلى آخر إنسانٍ يوجد على هذه الأرض لا يمكن أن يوجد أحدٌ منهم بمنجىً عن

---

(١) زهر الآداب للحصري

الشعور بهذا الحرج، ليس لأنَّ الحسين عليه السلام قتل وكفى، فإنَّ حوادث القتل تجري في العالم بشكلٍ دوريٍّ متَّصلٍ، بل إنَّ القتل في زمننا الحديث هذا لتزداد بشاعةً وكثافةً وخروجاً على الأنساق المألوفة للقتل في كلِّ يومٍ، ومع ذلك، فإنَّ الحرج الأكبر الذي لا يدانيه في التصوُّر حرجٌ آخر أكبر منه هو قتل الحسين عليه السلام، فلنا أن نتساءل إذاً عن السبب الذي من أجله أصبح قتل الحسين عليه السلام محرجاً للإنسان في التأريخ بشكلٍ عامٍّ إلى هذا الحدّ، بحيث لم يعد ممكناً لذاكرة الإنسان أن يغادرها قتل الحسين عليه السلام في لحظةٍ من لحظات الزمان.

أعتقد أنَّ السبب هو أنَّ الحسين عليه السلام رسم خطاً بيانياً تصاعدياً للموت نحو جوهر الحياة باستشهاده في كربلاء، أي أنه لم يُبقِ على الموت موتاً، بل سار به حثيثاً نحو الحياة، فوحَّد بينهما في صيرورةٍ أبديةٍ لا تقبل التفكيك، لأنهما أصبحا بمثابة مركَّبٍ كيمياويٍّ واحدٍ مؤلَّفٍ من عنصرين، عنصر الحياة في سبيل الموت الأكثر تعلُّقاً بحياة الإنسان، وعنصر الموت في سبيل الحياة الأشدِّ تمسُّكاً بنجاة الإنسان من أسباب الدناءة والإنحطاط.

ليس هذا فقط، فما أكثر من يقومون بهذا العمل على قلَّتهم في كلِّ زمانٍ على حدةٍ، لكنهم يبلغون كثرةً عدديةً لا بأس بها خلال الحركة العامَّة للتأريخ الإنسانيِّ الطويل، لكنَّ الحسين عليه السلام لم يكن معترضاً على أن يقوم بهذه التضحية في سبيل هذا المعنى

بأقلِّ اعتراضٍ، بل كان خائفاً على مصير قاتليه، وحريصاً على نجاتهم من هاوية الإنحطاط أكثر من حرصهم على مصالحهم الدنيوية الخاصَّة التي هي قصيرة الأمد مع ما تنطوي عليه من أسباب الهلاك الأبديِّ بالنسبة إليهم، فكان أباً مشفقاً على الخصوم أنفسهم، فتصرَّف معهم كما لو أنهم أبناء عاقّون متمرِّدون، وليس كما لو أنهم أعداء يستحقون منه تمنيات الهلاك والقضاء التامِّ عليهم، مع أنهم مستحقون لكلِّ هذا لو عاد الأمر إلى تحكيم معايير الحقِّ والباطل، فهم قتلةٌ مجرمون طامحون إلى رضا السلطان الجائر ولو بقتل الأوصياء من أولاد الأنبياء في نهاية المطاف.

عندما عزم القوم على سفك دم الحسين عليه السلام في العاشر من محرَّم، ركب الحسين عليه السلام راحلته وخطب فيهم قائلاً: «أيها الناس انسبوني من أنا ثمَّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟»[1].

فتخيَّل معي أيها القارئ أنك في ذلك الموقف، حيث تشاهد الحسين عليه السلام يخطب على الخصوم بهذا الكلام، فهل تحسُّ أنَّ في هذا الأسلوب خوفاً على الذات من القتل، كلا طبعاً، بمساعدة العديد من القرائن التي سترد خلال البحث، بل إنَّ الحسين عليه السلام خائفٌ على مصائر القوم لا غير، فهو يتكلَّم لا كلاماً مطلقاً بدوافع البشر العاديين، بل بدوافع الإمام المكلَّف بإنقاذ البشر من موارد الهلكة الحقيقية بالذهاب إلى

---

[1] مقتل الحسين عليه السلام عليه السلام للسيد المقرم

نار جهنَّم، فليس المهمُّ في نظره أن يموت أو أن يعيش هو بالذات، ولكنَّ المهمَّ أن لا يرتكبوا الجريمة الكبرى في قتل شخصٍ وصيٍّ من نسل نبيٍّ مثله، فيكونوا مستحقين لعذاب الله الخالد في جهنَّم، وهذا واضحٌ من قوله: «ألست ابن بنت نبيِّكم وابن وصيِّه وابن عمِّه وأوَّل المؤمنين بالله والمصدِّق لرسوله بما جاء من عند ربِّه؟ أوَ ليس حمزة سيِّد الشهداء عمَّ أبي، أوَ ليس جعفر الطيار عمِّي، أوَ لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيِّدا شباب أهل الجنة؟»[٢]. فمن كان منحدراً من سلالة المؤسسين الأوائل لدين الإسلام، ومن كان حائزاً على أفضل الأوصاف على لسان صاحب الرسالة، بل من كان سيداً لكلِّ أهل الجنة بلا استثناءٍ بإمضاءٍ من النبيِّ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى كيف يحلُّ قتله، وهتك حرمه، ودوس جسده الشريف بسنابك الخيل، وليس هذا مهمّاً في جنب دين الله طبعاً، لكنَّ المشكلة تتمثَّل في أنَّ من يشهدون بأنَّ هذا الدين حقٌّ بألسنتهم هم من يقومون بهذا العمل الشنيع، وهم يزعمون أنهم ينفِّذون تعاليم الإسلام، الإسلام الذي يُعدُّ الإيمان بالحسين عليه السلام واحداً من أركانه الرئيسية، تلك هي المفارقة.

كان الحسين عليه السلام حزيناً للغاية على مصير الأعداء، أسِفاً على أنهم ذاهبون إلى جهنَّم بوزر دمه، ومع ذلك، لم يشملهم بدعاء جدِّه النبيِّ صلى الله عليه وآله «اللهمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» فالمحنة الحقيقية تتمثَّل في أنهم يعلمون حجم الكارثة في قتل

---

[٢] أمالي الشيخ الصدوق

الحسين عليه السلام، ولكنهم طامعون برضا السلطان الجائر، ومنفِّذون لأوامره على حساب الأمر الإلهيِّ بأن يطيعوا الحسين عليه السلام، أو أن يحجموا عن قتله وانتهاك حرماته على الأقلّ، وإلا فماذا يقال عن ذلك الشقيِّ الذي يفتخر بأنه ساهم في قتل الحسين عليه السلام أمام عدوِّه اللدود:

إملأ ركابي فضَّةً أو ذهبا فقد قتلتُ الملكَ المحجَّبا

قتلتُ خيرَ الناسِ أمّاً وأبا

ها هنا تكمن المحنة الحقيقية في تفكير أهل ذلك العصر، فما زال هذا الرجل الذي يمثِّل عيِّنةً مهمَّةً تعكس طراز التفكير في رؤوس الجماعات التي اعتنقت الإسلام ظاهراً ولم يتغلغل الإيمان في قلوب أفرادها، مازال على جاهليته الأولى بالرغم من أنه نطق بالشهادتين، فأيُّ فرقٍ بين نمط التفكير الجاهليِّ القبليِّ المتعجرف وبين هذا النمط من التفكير في رأس هذا الإنسان الفظِّ الجاهل، فالحسين عليه السلام عليه السلام ملكٌ له حُجّابٌ لا أكثر ولا أقلّ، ما شاء الله على هذا التصوُّر الذي يتخيَّل الأوصياء إن هم إلا ملوكٌ كسائر الأكاسرة والقياصرة، وليت شعري هل رأى الحسين عليه السلام جالساً

على عرش ملكٍ في بلاطٍ فخمٍ، أم هل رآه سائراً في موكبٍ وخلفه القيان والعبيد كما هو حال الملوك الذين استعمروا لقب الخلافة في التأريخ الإسلاميِّ المزيَّف، لكنها الأطر الذهنية الضيِّقة، والأنفس المريضة التي لم تشأ أن تتخلَّص من ترسُّبات التفكير الجاهليِّ المقيت، بالرغم من أنها زامنت الوحي وعاشت التفاصيل الأولى للرسالة، فبقيت على حالها تحسب الأنبياء أكاسرةً، والأوصياء ملوكاً محجَّبين بلا أدنى فرقٍ بين أولئك وهؤلاء.

لكنَّ هذا الرجل الذي تركَّزت في نفسه أمراض العصر الذي عاش الحسين عليه السلام فيه لم يكن مجرَّداً من الشعور الغامض بموجبات الشرف، فهو يعترف بجرأةٍ أمام الحاكم الغاشم بأنَّ من أقدم على قتله إنما هو خير الناس من جهة الأمِّ والأب معاً، لكنه لا يخرجه عن دائرة الملوك الدنيويين بالطبع، فالإطار الذهنيُّ العامُّ لهذا الرجل وأمثاله، وهم أغلب أهل ذلك الزمان يقضي بأنَّ ذا الحقِّ في الطاعة كالحسين عليه السلام وإن كان وصياً لا يمكن أن يُعامل إلا معاملة الملوك، فلو فرضنا أنَّ الحسين عليه السلام مارس دوره الإلهيَّ في الخلافة الزمنية لكان هذا الرجل متملِّقاً للخليفة الذي هو الحسين عليه السلام ليس إلا، من منطلق أنه الملك الحاكم، وليس من منطلق أنه الخليفة الإلهيُّ الذي أوجب الله طاعته بمنطق الأوصياء المعصومين، وليس بمنطق الملوك الدنيويين المستبدِّين في الغالب.

ثمَّ إنه يطالب بالثمن، يطالب بأن يملأ ابن زيادٍ ركابه فضَّةً أو ذهباً، فما أغباه من بائعٍ لدينه بدنيا غيره، وما أحفل ابن زيادٍ بذكاء عقله وإن كان مجرماً، إذ أمر بقطع الذي فيه عيناه، لأنه إن كان يعلم أنَّ من أقدم على قتله هو خير الناس أماً وأباً، فلماذا قتله إذن، ولماذا يفتخر الآن أمامه بقتله.

لكن بربِّك يا ابن زيادٍ، أليس حالك مثل حال هذا الرجل القاتل في الباطن، أوَ لستَ تعلم علم اليقين أنك سيَّرت الجيش العرمرم لقتل من تؤمن أنه خير الأوَّلين والآخرين في زمانه، أم أنك تحاول أن تقنع نفسك بسفسطةٍ واضحةٍ أنك لا تعلم بهذه الحقيقة البيِّنة الجليَّة.

الخير والحسين عليه السلام، انطباق

الحسين عليه السلام رحمةٌ للناس ومجالٌ واسعٌ للمغفرة، فهو لا يريد للناس إلا النجاة، النجاة على صعيدين، صعيد الحياة الدنيا وصعيد الآخرة، أما النجاة في الدنيا فمن المؤكَّد أنَّ الحياة الدنيوية الوبيلة إنما هي مع الظلمة وأعوانهم «لا أرى الحياة مع الظالمين إلا برمًا»، وأما على صعيد الآخرة، فأيَّة سعادةٍ أكبر من أن يُقتل المرء مع وصيٍّ معصومٍ كالحسين عليه السلام، ومن قدَّم دمه مع الحسين عليه السلام وبين يديه برهن بشكلٍ قاطعٍ على أنَّ ذنوبه مهما بلغت كثرةً لم تكن عن إصرارٍ واستهانةٍ بشرع الله، لأنه تائبٌ عنها، راغبٌ بأن يسود منهجٌ للحياة لا على أساس تلك الذنوب، بل على أساس ما

يرسمه دم المعصوم من منهج الخير والعصمة للناس، وفي هذا وحده ما فيه من البرهان على أنه يستحقُّ غفران الخطايا وشموله بالرحمة الإلهية الواسعة.

أنظرْ إلى الحسين عليه السلام وهو في مسيره إلى كربلاء، كيف يلتقي ببعض الناس ممن عرفوا حقَّ الحسين عليه السلام ومنزلته الرفيعة في الإسلام، فيحدِّثهم عن عزمه، ويعرض عليهم نصرته، ليس من أجل شيءٍ شخصيٍّ خاصٍّ به طبعاً، لكن من أجل شيءٍ آخر متعلِّقٍ بهم هم، شيءٍ له علاقةٌ وطيدةٌ بنجاتهم الأخروية وغفران خطاياهم وذنوبهم التي ارتكبوها بضعف نفوسهم في آنات حياتهم التي لم تمتلئ بخشية الله، فإن نصروه استحقوا غفران كلِّ ذلك، بوصف الحسين عليه السلام منهج الله الخالص من كلِّ شوائب المشاريع الشخصانية والأنانية والإنتهازية الضيِّقة مما يسعى إليه الناس ويقتتلون من أجله، فإذ يلتقي بشخصٍ اسمه عبيد الله بن الحرِّ يحدِّثه: «يا ابن الحرِّ إنَّ أهل مصركم – يقصد الكوفة – كتبوا إليَّ أنهم مجتمعون على نصرتي وسألوني القدوم عليهم وليس الأمر على ما زعموا، وإن عليك ذنوباً كثيرةً، فهل لك من توبةٍ تمحو بها ذنوبك؟».

فهذا هو الهدف إذن، أن يحصل هذا الشخص الذي لا يعدم نوايا الخير على المستوى النفسيِّ العميق على فرصةٍ لغفران خطاياه ليس إلا، فإنَّ الحسين عليه السلام مقتولٌ لا محالة، وهم يعلم بهذه النتيجة بغضِّ النظر عن القول بعلمه بوسائل العلم الخاصَّة بالأئمة المعصومين حتى، يعلم هذه النتيجة من خلال القرائن العديدة التي عرف الناس

العاديون أنَّ الحسين عليه السلام مقتولٌ لا محالة بناءً على تتبُّعها وقراءتها، بل إنَّ هذا الرجل المرتكب للذنوب في حياته بشهادة نصِّ الحسين عليه السلام يعلم ذلك، وهو واثقٌ من هذه النتيجة التي سينتهي إليها الحسين عليه السلام في رحلته كما يتَّضح من تضاعيف القصَّة، فهل يجوز لنا أن نقول إنَّ هدف الحسين عليه السلام هو أن يحصل على مزيدٍ من الأنصار من أجل الحفاظ على حياته والإنتصار العسكريِّ على الجيش اللجب للطغاة.

«وما هي يا ابن رسول الله، سأل الرجل.

فأجاب الحسين عليه السلام: تنصر ابن بنت نبيِّك وتقاتل معه».

هذا هو ثمن غفران الخطايا، وإياك أن تخلط الأمور حابلها بنابلها فتقول: إنَّ أسلوب الحسين عليه السلام هو عينه أسلوب رجال الدين في المسيحية أو في الإسلام، حيث يطابقون بين مراداتهم الشخصية ومراد الله، لأنَّ الحسين عليه السلام ليس كرجال الدين العاديين في كلِّ الأحوال، بل هو رجل الدين الحقيقيُّ المعيَّن من الله، وبنصِّ رسول الله، فهو معصومٌ بهذا المعنى، فرغبته لا يُتصوَّر أن تكون نابعةً من هوىً شخصيٍّ على الإطلاق، إنها بالفعل تعبِّر عن مراد الله ولا تنحرف عنه مليمتراً واحداً ولا أكثر من ذلك ولا أقلّ، هذا بالنسبة لمن يؤمن بالإسلام بوصفه ديناً إلهياً واقعياً، أما من لا يؤمن

بالدين، ولا يعتقد أنَّ الله أنزل شيئاً بوحيه في يومٍ من الأيام، فمن الطبيعيِّ أن لا يعنيه هذا الإستنتاج، فالكلام معه على صعيدٍ آخر، وليس على هذا الصعيد بالقطع.

قال الرجل: «والله إني لأعلم أنَّ من شايعك كان السعيد في الآخرة، ولكن ما عسى أن أغني عنك ولم أخلِّف لك بالكوفة ناصراً، فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطَّة، فإنَّ نفسي لا تسمح بالموت! ولكن فرسي هذه (المحلقة) والله ما طلبت عليها شيئاً إلا لحقته، ولا طلبني أحدٌ وأنا عليها إلا سبقته فخذها فهي لك».

إنَّ هذه الإجابة تعكس الإستراتيجية المتأرجحة بين الرغبة بالحياة تحت أيِّ شرطٍ كان، وبين الرغبة بالمساهمة في وضع لبنةٍ من اللبنات في بناء صرح الخير، وبحكم أنها متأرجحةٌ فإنها تنزاح نحو الموقف المتهاون دائماً.

إنَّ الرجل لم ينتبه إلى حقيقة أنَّ الحسين عليه السلام ليس بحاجةٍ إلى مثل هذا التبرير منه، فكونه لم يخلِّف له في الكوفة ناصراً متضمَّنٌ في عبارة الحسين عليه السلام الآنفة، إذ قال له عن الموقف في الكوفة: «وليس الأمر كما زعموا» فكان عليه أن يرتقي قليلاً إلى الأفق الكبير الذي يتحدَّث به الحسين عليه السلام، لكنَّ رغبته بالحياة تحت أيِّ شرطٍ كان حجبت عنه الإنتباه إلى هذه الحقيقة.

لقد كان الحسين عليه السلام يتحدَّث بمنطق الأوصياء، أما الرجل فقد كان يتحدَّث بمنطق الدبلماسيين الضعفاء.

أما فرسه، فقد كانت أحقَّ منه بما ألحق بها من الأوصاف، لكن ما الفائدة، فكان الأفضل أن يكون الفارس فوق الفرس هو من يتَّصف بتلك الأوصاف أوَّلاً، كي تكون قيمتها متحققةً فعلاً في الفرس بعد ذلك.

قال الحسين عليه السلام: «أما إذا رغبت بنفسك عنا فلا حاجة لنا في فرسك ولا فيك».

لكنَّ الحسين عليه السلام لا يتخلّى عن شعور الأوصياء في هذه اللحظة، فيقدِّم نصحه للرجل وإن كان مقصِّراً، فهو يريد له النجاة من النار على كلِّ حال، فواصل كلامه: «وإني أنصحك كما نصحتني، إن استطعت أن لا تسمع صراخنا ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع واعيتنا أحدٌ ولا ينصرنا إلا أكبَّه الله في نار جهنَّم»[1].

الحسين عليه السلام يحرج الثوّار

---

[1] اهداف نهضة سيد الشهداء في كلمات الفقهاء للشيخ عبد الرزاق النداوي

لم يكن الحسين عليه السلام قاصداً لنوعٍ من الأهداف التي يتوخّاها الثائرون عادةً، أي إنه ثائرٌ من طرازٍ خاصٍّ جداً، فلم يحفظ التأريخ لنا مشهدًا ثوريًا كمشهد الحسين عليه السلام من جهتين، إحداهما تناقض الأخرى تناقضاً ظاهرياً بحسب التصوُّر الإنسانيِّ البسيط الذي لم يرقَ بعدُ إلى مستوى ما يفكِّر به الأنبياء والأوصياء، وهما:

الجهة الأولى: إصرار الحسين عليه السلام على المضيِّ بالثورة ووضع خطَّتها وهندسة أحداثها كما لو أنه طالبٌ لقلب نظام الحكم الأمويِّ بهذه القدرة العسكرية البسيطة، وتلك حماقةٌ لو فكَّر بها إنسانٌ عاديٌّ لكان موضع السخرية والإستهزاء من الجميع، فما بالك بوصيٍّ ألمعيٍّ مثل الحسين عليه السلام.

أو كما لو أنه طالبٌ للإنتحار، وتلك فكرةٌ لا يمكن أن تطرق ذهن الحسين عليه السلام، وإن كان ممكناً أن تطرق أذهان غيره من ذوي الأنفة والعزَّة والشعور بعلوِّ النفس.

إنَّ الحسين عليه السلام رجلٌ ربانيٌّ من طراز الأوصياء الإستثنائيين في تأريخ الديانات، ومن كان هذا شأنه لا يمكن أن ينظر إلى الأمور من زاويتها الضيِّقة هذه، كما أنَّ قرائن عديدةً لا تُحصى كثرةً تقف بالضدِّ من هذا الإستنتاج الذي لا يصحّ، منها:

- أوَّلاً: إنَّ الحسين عليه السلام عاش فترةً طويلةً قبل النهضة قاربت العشرين عاماً كان فيها ملتزماً بقرارٍ إلهيٍّ آخر، وقد عاش حياةً عاديةً بكلِّ المقاييس، ولم

يُؤثر عنه أنه تحرَّك تحرُّكاً عسكرياً أو أنه فكَّر بالتحرُّك العسكريِّ مع أنه كان إلى سنِّ الشباب أقرب، ومع أنَّ الدواعي النفسية التي تحرِّض ذوي الشعور بالأنفة العادية كانت موجودةً بصورةٍ أقوى، فما باله لم يفكِّر بالإنقلاب على الحكومة في تلك الفترة ولو من باب الخلاص من هذه الحياة التي أجبرته على أن يكون في موقعٍ دون ما يستحقُّ بكثير؟

- ثانياً: إنَّ الحسين عليه السلام كان ربانياً وإلهياً أكثر من أيِّ شخصٍ آخر في زمانه، وهذا هو القدر المتيقَّن الذي يمكن تحصيله بحسب القاسم الإعتقاديِّ المشترك بين المذاهب الإسلامية وغيرها، فكيف يصحُّ أن يُقال عن غيره من ذوي التفكير الإلهيِّ من الصحابة وغيرهم أنهم تجنَّبوا التفكير المخالف لمقتضى الشريعة الإسلامية في حين يُقال بشأن الحسين عليه السلام عكس ذلك؟

إنَّ تلك فكرةٌ غير معقولةٍ بالمرَّة، خاصَّةً مع علوِّ شأن الحسين عليه السلام، والمكانة الكبيرة التي كان يحظى بها في المجتمع الإسلاميّ، كونه يمثِّل الإمتداد الوحيد الباقي للرسول الأعظم في ذلك الزمان.

- ثالثاً: إنَّ كلمات الحسين عليه السلام العديدة في المناسبات التي جمعته بأهل بيته وبأصحابه وبالآخرين ممن تصوَّروا أنَّ الحسين عليه السلام غافلٌ عما هو موجودٌ في أذهانهم حول عدم تمكُّنه من قلب نظام الحكم، وعدم وفاء من بايعه

على النصرة إلخ، تبيَّن بوضوحٍ أنه كان يقصد شيئاً آخر لا يمكن لهم أن يستوعبوه حالياً فضلاً عن أن يكون موجوداً في أذهانهم بالمرَّة، ولذلك فإنه اكتفى بأن تكلَّم معهم بعباراتٍ موحيةٍ مكثفةٍ تكتنز المعنى للتأريخ، وتجعل الألمعيَّ منهم يفهم المغزى الحسين عليه السلاميَّ ولو بصورةٍ شاحبةٍ، إلا أهل بيته وأصحابه طبعاً، فقد استطاعوا أن يرتقوا إلى أفق الحسين عليه السلام ولو بصورةٍ إجماليةٍ غير مفصَّلةٍ، لأنهم تخلَّصوا من حجاب الأنا أوَّلاً، ولأنهم وطَّنوا أنفسهم على طاعة الحسين عليه السلام وعدم التخلِّي عنه إلى النهاية.

الجهة الثانية: هذه الجهة هي التي تنسجم مع الوقائع في تفسيرها المنطقيِّ المعقول، إذ يقال إنَّ الحسين عليه السلام شاء أن يقوم بدورٍ إلهيٍّ مسندٍ إليه، وأن يرسم الخطَّ الهندسيَّ الذي يتألَّف منه صرح الإنسان في المستقبل البشريِّ كلِّه، حيث تبدأ نقطة الإنطلاق الحقيقية نحو المشروع المهدويِّ من الحسين عليه السلام، فالحقُّ أنَّ الحسين عليه السلام واضعٌ في ذهنه قضية الإنتصار حتماً، ليس الإنتصار المعنويّ فقط، بل الإنتصار العسكريّ والماديّ أيضاً، لكن ليس على مستوى زمانه الذي أدَّت أحداثه إلى أن يخوض معركة كربلاء، بل على صعيد المجموع الكليِّ لآنات الزمان.

معنى ذلك أنَّ الحسين عليه السلام قرأ التأريخ كلَّه بعينه الإلهية النبوية، بألمعية شخصٍ كان الله قد أناط به مهمَّة حركة التأريخ المستقبليِّ للإنسان من نقطة الزمان التي تحرَّك فيها إلى آخر لحظةٍ يستمرُّ فيها الإنسان على سطح هذه المعمورة بالوجود.

ومعنى ذلك أيضاً أنَّ كلَّ حركةٍ تستهدف تغيير الواقع الإنسانيِّ بإخلاصٍ إلى الأفضل تدين بالجزء الأهمِّ منها لتلك السويعات الصعبة التي خاض فيها الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه معركة التأريخ القادم بصورةٍ كليةٍ وشاملة.

الطمأنينة والإستقرار النفسيُّ في قلب الإمام الحسين عليه السلام وقلوب أصحابه

نحن في هذه الفقرة نستهدف أن نلقي ضوءاً يسيراً على نقطةٍ هي في غاية الأهمية من وجهة النظر الخاصَّة، لأنَّ لها علاقةً بالفقرة السابقة من جهة أنها تدعم الفكرة القائلة بأنَّ الحسين عليه السلام لم يكن يفكِّر بالطريقة المألوفة لدى الثائرين على أنظمة الحكم عبر التأريخ، بل كان نسيج وحده، كونه شخصاً إلهياً من طراز الأوصياء.

إنَّ الذين يحاولون أن يقرؤوا قضية الحسين عليه السلام على عجلٍ يتوصَّلون إلى نتائج بعيدةٍ عن فلسفة النهضة الحسينية بالكامل، بل ربما كانت تناقض تلك الأهداف وتسير بالنسبة إليها في الإتجاه المعاكس.

لو قيل على سبيل المثال إنَّ النهضة الحسينية ما كان لها أن تكون لو لم يكن الحسين عليه السلام ذا مزاجٍ ثوريٍّ حادٍّ بالعكس من المزاج النفسيِّ الخاصِّ بالإمام الحسن، أو أنَّ ثورة الحسين عليه السلام ما كانت لتتبلور بهذه الطريقة لو كانت الحالة الإقتصادية للأمَّة في تلك الآونة على ما يرام... الخ، من هذه الأقاويل التي تسقط على النهضة الحسينية التفسيرات والتأويلات والمقولات الفلسفية والإيديولوجية التي انطلقت منها حركات التغيير في العالم المعاصر، فلا يمكن مع هذا الإسقاط أن نصل إلى معنىً تحليليٍّ تفصيليٍّ تأويليٍّ صحيحٍ للنهضة الحسينية على وجه الإطلاق.



اعتباطية السرد التاريخي: ابن الأثير أنموذجًا

هل كانت نهضة الحسين عليه السلام ثورة تغييرية؟

كثيراً ما تنتفض الشعوب، وكثيراً ما يركب موجتها الانتهازيون الذين يتمظهرون بمظهر الثوريين الساعين إلى التغيير بالطبع، فهل كان الحسين عليه السلام راغباً بأن يكون طابع ثورته هو هذا، فإذا قيل نعم، فإنَّ لنا ردوداً ومناقشاتٍ خاطفةً تفنِّد هذه الموافقة وتؤيِّد ما نقول من أنه لم يكن طابع النهضة الحسينية بناءً على ما يتوفَّر في التأريخ العامِّ عنها من المعلومات المعروفة للجميع تقريباً، إلا أننا نختار المناقشة هنا من منطلق التحليل الخاصِّ بنا فنقول:

أوَّلاً: ما ذكره الشيخ مطهري في كتابه (حقيقة النهضة الحسينية) من أنَّ ثورة الحسين عليه السلام لم تكن وليدة الإنفجار النفسيِّ من كلِّ الجهات، بناءً على أنَّ الإسلام يختلف عن بعض النهضات التي تحدث نتيجة الإنفجارات الخاصَّة، كالثورات الشيوعية التي حدثت في بعض البلدان «إنَّ الإسلام لا يؤمن مطلقاً بمثل هذه الثورة، وقد كانت الثورات أو النهضات الإسلامية كلُّها وليدة وعيٍ وإدراكٍ كاملين للمواقع التي جاءت لتغييرها، وإنَّ ثورة الحسين عليه السلام لم تكن وليدة الإنفجار، ولم تكن عملاً بعيداً عن الوعي، ولم تنشأ نتيجة نفاد صبر الحسين عليه السلام بسبب الضغوط الكثيرة التي كانت تمارس من قبل الأمويين وعمالهم أيام معاوية وابنه يزيد بحيث تؤدِّي به إلى أن يثور ويقول: فلأثر وليكن ما يكون، كلا لم تكن نهضة الحسين عليه السلام بمثل ذلك،

ويدلُّ على هذا الرسائل المتبادلة بينه وبين معاوية وابنه يزيد من بعده، بالإضافة إلى الخطب التي أوردها في مجالاتٍ مختلفةٍ خاصَّةً تلك التي خاطب بها أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وهم مجتمعون في منى»[1].

ثانياً: إنَّ الحسين عليه السلام واصل دعواته لأصحابه وأهل بيته على السواء كي ينسحبوا من المعركة قبل حدوثها، وقد حرَّضهم على ذلك مراراً حتى اليوم الأخير قبل الواقعة، فإذا «نظرنا إلى كيفية تعامله مع أصحابه أثناء عزمه على القيام نرى أنه يتحاشى الإستفادة من أيِّ عاملٍ من العوامل التي تؤدِّي إلى حدوث الإنفجار النفسيِّ والعاطفيّ، ولا يسمح بأن تنطبع نهضته بالطابع الإنفجاريّ».

فالحسين عليه السلام يؤكِّد لهم جميعاً أنه يتحمَّل نتائج قراره الإلهيِّ وحده، وأنهم قد أدَّوا ما عليهم من إسقاط الفرض عليهم بنصرته، فمن شاء منهم أن ينصرف من ساحة المعركة قبل حدوثها فلينصرف ولن يكون معاتَباً، فكان الجميع يأبون ذلك ويصرُّون على خوض المعركة بنفس الإستعداد الحسيني للقاء الله، فكانت تلك المواقف التي روتها كتب المقاتل المختلفة شاهداً حياً على اطمئنان الحسين عليه السلام واطمئنان أصحابه، حتى أنَّ أحدهم يجد من المناسب أن يكثر من المزاح في ذلك اليوم العصيب، ويقول في الردِّ على من أنَّبه على ذلك «بل هذا وقته، فما هي إلا أن يميل القوم علينا بأسيافهم حتى

(1) حقيقة النهضة الحسينية للشهيد مطهري

نعانق الحور العين»[1] إلى غير ذلك من المشاهد المؤثِّرة، والتي يصبُّ مفادها جميعاً في تأييد هذه النتيجة.

ثالثاً: ليس من شكٍّ أنَّ فاجعة الحسين عليه السلام كارثيةٌ بكلِّ المقاييس البشرية، ومن الطبيعيِّ أن يفكِّر أيُّ قائدٍ في الوضع الذي كان فيه الحسين عليه السلام، أن يفاوض أو أن يوافق على بعض الشروط للخصم كي يحظى بالنجاة، إن لم يكن بالنسبة إليه، فبالنسبة إلى عياله ونسائه على أقلِّ التقادير، لكنَّ الحسين عليه السلام لم يفعل ذلك على الإطلاق، بل إنه كان مشغولاً بالمسرحة الإلهية للواقعة أكثر مما كان مشغولاً بشأن النجاة أو تلبية الحاجات الآنية من الزاد والماء على مستوى العائلة.

وحتى عندما بعث العباس إلى الشريعة كي يغامر من أجل الحصول على الماء، فإنه لم يكن مهتمّاً كثيراً لهذا الأمر، لكنه أراد فقط أن يسلك السبل الطبيعية للحصول على الماء للعائلة، باعتبار أنَّ هذا التصرُّف يشكِّل جزءاً لا يتجزَّأ من المشهد الكليِّ للواقعة.

بل أكثر من ذلك، فهل يبلغ المرء مقداراً من السذاجة يجعله يتقدَّم بطلب الماء للطفل الرضيع وهو محمولٌ على يديه، مع أنه يعلم تماماً أنهم يستميتون من أجل حرمانه وحرمان عائلته من الماء، وإلا فلماذا قتلوا العباس إلى جنب النهر، إلا لأنه كان يحمل قربته ليملأها بالماء لا أكثر ولا أقلّ، حتى أنهم قابلوه بأعدادٍ هائلةٍ من العسكر من أجل

[1] اللهوف في قتلى الطفوف للسيد ابن طاووس

غايةٍ واحدةٍ وحيدةٍ لا غير، وهي أن يطيحوا بقربة الماء أرضاً، ويحرموا جوف الحسين عليه السلام الظامئ منها وأجواف عياله.

فلماذا يرفع الحسين عليه السلام طفله الرضيع على يديه ليطلب من أعدائه الماء إن لم يكن من أجل أن ينضمَّ هذا المشهد الفجائعيُّ إلى المشاهد الأخرى في إنجاز المشهد الإلهيِّ الأعظم لواقعة كربلاء؟.

ثمَّ إنَّ الحسين عليه السلام اختار أن يعمِّد أبناءه وأبناء أخوته وذويه وأبناء أصحابه الصغار بكلمات الرضا والحبِّ والدعاء قبل أن يأذن لأيٍّ منهم بالخروج للقتال، وكان الجميع مطمئناً إلى درجةٍ عجيبة. الحسين عليه السلام مطمئنٌّ إلى أنه يقوم بأضخم عملٍ إلهيٍّ في التأريخ الماضي والحاضر والمستقبل، والأطراف الأخرى بمن فيهم الأطفال الصغار هم على هذه الدرجة من الطمأنينة كذلك، فتكاد تسمع من جميعهم أشعاراً وعباراتٍ تنمُّ عن هذا الإدراك اللاإعتياديِّ طبقاً لكلِّ المعايير التي تحكم الطفل الصغير مهما كان ألمعياً وتلوح على سيمائه أمارات العبقرية.

بل إنَّ الأمر ليبدو مسانخاً لما نسمع عنه أو نقرأ من الأحداث الأسطورية في أشعار أصحاب الملاحم، مما يتخيَّله الشعراء العظام عادةً ولا يكون ضرورياً أن يوجد في الواقع من وجهة نظرٍ فنيةٍ، وإلا فأيُّ قلبٍ مطمئنٍّ صبورٍ هذا الذي تحمله السيدة زينب،

وهي التي هامت بحبِّ أخيها الحسين عليه السلام إلى درجة أنها تفضِّل طاعته على حياة بنيها وحياتها هي بشكلٍ خاصّ، فتراها قد وقفت على عرصات كربلاء في اللحظات الأولى لمصرع الحسين عليه السلام، فتدنو من جثمانه الشريف، وترفعه قليلاً عن سطح الأرض، لتقول في دعائها: اللهمَّ تقبَّل منا هذا القربان القليل.

إنَّ هذه المهمَّة التي قام بها الحسين عليه السلام مهمَّةٌ تمتدُّ إلى أعماق التأريخ، من جهة أنها استبطنت في داخلها كلَّ توجُّهات الأنبياء والأحرار في التأريخ السابق للحسين، كما أنها تحتلُّ المسافة الممتدَّة إلى آخر يومٍ من أيام التأريخ، من جهة أنها لم تكن ناظرةً إلى هدفٍ قصير الأمد أو ضيِّق الأفق في ذلك الزمان، بل كانت تستهدف الإنسان بشكلٍ عامٍّ بغضِّ النظر عن الزمان والمكان، وهذا هو ما منح النهضة الحسينية معناها الكبير في الواقع.

لقد كان الحسين عليه السلام يقاتل باسم جميع المظلومين والمنتكسين والمحرومين في التأريخ، بتخطيطٍ بارعٍ منه أوَّلاً، وبمؤازرةٍ لا مثيل لها من قبل عددٍ محدودٍ من أهل بيته وأصحابه ثانياً، مضافاً إلى ما وفَّرته العناية الإلهية للنهضة الحسينية من أسباب الخلود والإنتشار.

لماذا نقول أنّ شهادة الحسين عليه السلام انتصارٌ للإسلام؟

لنتساءل، هل أنَّ حياة الإمام أفضل من جهة ما يُتوقَّع منه أن يقوم بتحقيق مستوىً أعلى من التطابق بين أعمال الناس والشريعة الإسلامية، أم أنَّ استشهاده هو الأفضل في طريق الوصول إلى هذه الغاية، فلماذا لم يتحاشَ الحسين عليه السلام أسباب القتل لأجل هذه المصلحة في الأقلّ، أم أنَّ الأحداث أدَّت بصورةٍ مفاجئةٍ إلى قتل الحسين عليه السلام بينما لم يكن له أيُّ علمٍ بما سيؤول إليه الحال، بل اعتمد على التأييد الذي بلغه على لسان ابن عمِّه مسلم بن عقيلٍ في العراق، ولم يكن يعلم أنَّ هناك مصيراً آخر سيؤول إليه الوضع، وهو خذلان الناصر، وتألُّب الجيش الأمويِّ عليه من كلِّ حدبٍ وصوب[1].

نقل هذا التساؤل السيد الحائريُّ على لسان أحد المؤلفين، إذ اعتبر هذا المؤلِّف أنَّ حياة الحسين عليه السلام لو أنه حافظ عليها لكانت خيراً للإسلام، لأنَّ قتله كان خسارةً كبيرةً مني بها الإسلام والمسلمون، وهو لا يقول هذا من منطلقٍ نتفق معه حوله، بل من منطلق أنَّ قرار الإستشهاد نفسه كان خطأً محضاً، وأنَّ الأفضل لو أنَّ الحسين عليه السلام لم يقدم على هذا المشروع من الأساس.

ردَّ السيد الحائريُّ بما ردَّ به السيد محمد باقر الصدر في هذا السياق، واكتفى بذلك ولم يزد عليه شيئاً.

[1] أضواء على ثورة الامام الحسين عليه السلام للسيد محمد الصدر

هدف الحسين عليه السلام

أما نحن فلنا رأيٌ آخر في المسألة، إذ يمكن أن يقال:

أوَّلاً: إنَّ الحسين عليه السلام كان يعلم بأنه سيقتل في كربلاء، وأنه يعلم بكلِّ التفاصيل الأخرى أيضاً مهما كانت دقيقةً وصغيرةً، فهي جزءٌ لا يتجزَّأ من القضية الكلية التي يعلمها تفصيلاً، لكنَّ علم الحسين عليه السلام بها لا ينافي اتباعها بأيِّ حالٍ من الأحوال، أي أنَّ علمه بأنه سيقتل في كربلاء لا ينافي إقدامه على القتل تضحيةً بالذات من أجل الهدف الدينيِّ الأسمى، وكذلك قل عن علمه بالتفاصيل والجزئيات الأخرى لا ينافي الإقدام عليها واتباع العمل بموجبها على نفس القياس.

ثانياً: إنَّ استشهاد الحسين عليه السلام ليس الهدف منه هو ما نطق به المؤرخون والكتاب المهتمون بالنهضة الحسينية وفلسفتها على وجه التحديد، أي أنَّ ما ذكره المعترض من أنَّ استشهاد الحسين عليه السلام لم يحقق أهدافاً مستقبليةً كبرى تجعل قضية الإستشهاد راجحةً بدليل أنَّ الحركات الثورية التي أعقبت استشهاده في ظلِّ الحكم الأمويِّ لم تنجح في معارضتها وآلت إلى الإخفاق على مستوى الأهداف الستراتيجية المعلنة كحركة سليمان بن صرد الخزاعيّ، وحركة المختار، وحركة زيد بن علي... إلخ، لا يكفي لردِّ الدعوى كما هو واضحٌ، فمن الممكن أن يقال إنَّ العديد من الحركات الثورية الأخرى في التأريخ نجحت في تحقيق مسعاها بعد أن استلهمت نهضة

الإمام الحسين عليه السلام، كالدولة الفاطمية، والدولة البويهية، والحركات المشابهة حتى العصر الحديث، مع أننا لا نوافق على هذا الإقتران أيضاً بين هذه الحركات وحركة الإمام الحسين عليه السلام على وجه الإطلاق، لأنها تحتمل نقاشاً في التفاصيل ليس هاهنا مورد ذكره بطبيعة الحال.

ثالثاً: إنَّ الهدف الكبير الذي أراده الحسين عليه السلام ليس هو أن تنتصر هذه الثورات التي ذكرها المعترض، فلربما كانت هذه الثورات واقعةً في طريق تعزيز الهدف الحسين عليه السلاميِّ الكبير في استيعاب الزمن كلِّه من أجل الإنتصار الشامل على الباطل في آخر الزمان، وليس من الضروريِّ أن يأخذ نجاحها عنوان الإستيلاء على الحكم بدلاً من بني أمية، فإن كان قادتها متنبِّهين إلى هذا الجانب الدقيِّ من المسألة فبها ونعمت، وإن لم يكونوا متنبِّهين إليه انضمَّت تلك الحركات بحسب درجة الإخلاص فيها إلى المعنى الإلهيِّ المخلص في نهضة الإمام الحسين عليه السلام قسراً، ضمن ما يعرف بالسنن الإلهية في تحقيق مسيرة التأريخ نحو الغاية الإلهية النهائية في انتصار مشروع العدل والحقِّ على مشروع الباطل في آخر المطاف.

السرد التاريخي عند السابقين

ليست كتابة التأريخ عند السابقين في الحضارة العربية والإسلامية فناً أو علماً منهجياً يستحقُّ التقدير، ولولا أنَّ الضرورة تستدعي الرجوع إلى تلك المصادر التأريخية كونها

دوَّنت الأحداث الهامَّة في التأريخ الإسلاميِّ بطريقة الجمع الروائيِّ العشوائيّ، إذ لا يوجد ما يعوِّض عنها في مجال الإطلاع على مجريات التأريخ في تلك الحقب الزمنية التي مثَّلت المنطلقات الأولى لتشكيل الوعي بتأريخ الإسلام عند الأجيال الإسلامية التي أعقبت ذلك التأريخ لما كان من الحكمة أن يعتمد عليها الباحث في قليلٍ أو كثيرٍ، وذلك للأسباب الآتية:

السبب الأوَّل: إنَّ هؤلاء المؤرِّخين تتحكَّم بهم قبلياتهم المذهبية والإيديولوجية، فلا تكاد تجد واحداً منهم ينهج بكتابة التأريخ نهجاً موضوعياً على الإطلاق، بل تراه هزيلاً مضحكاً في سرد الروايات التي تتناقض مضموناتها وتتضادُّ إلى حدٍّ بعيدٍ، فإذ يحدِّثك المؤرِّخ عن الفظائع اللا أخلاقية واللا دينية التي يرتكبها أحد السلاطين أو الخلفاء كما تحلو لهم التسمية يعطف عليها في الصفحة ذاتها بروايةٍ أخرى تشير إلى تقواه وورعه، من دون أن تشعر ذائقته العلمية بشيءٍ من الكزازة والإنحراف، وإذ يحدِّثك عن انغماس أحد الخلفاء باللذَّة البهيمية وشرب المسكر يعطف عليك بخبرٍ مفاده أنه كان ينصعق ويغيب عن الوعي إذ يسمع آيةً من القرآن وهكذا.

دعك من هذا، فقد يكون لهم بعض العذر الذي يُمنح للمجانين عادةً، لكن ماذا يقال عن خطَّةٍ تُعدُّ لقتل وصيٍّ من الأوصياء وسبطٍ من نسل الأنبياء كالحسين عليه السلام عليه السلام، ومع ذلك يسردها المؤرِّخ من هؤلاء بأسلوبٍ ربما أشعرك بتعاطفه مع

الحسين عليه السلام، لكنه لا يستمرُّ بهذا، إذ يقطع تعاطفه هذا فجأةً بأن يوحي إليك بأنَّ واضع الخطَّة كان يستهدف الغاية الدينية الصحيحة من دون أن يصرِّح بذلك علانيةً، لكنه يوحي بذلك فقط، من خلال العديد من السياقات التي يسرد بها أحوال المجرمين من أمثال معاوية ويزيد وحاشيتهما وأعوانهما من الذين ساهموا في سفك دم الحسين عليه السلام عليه السلام.

السبب الثاني: إنَّ هؤلاء المؤرِّخين لا يتوخَّون الدقَّة في السرد التأريخيّ، فهم يروون عن كلِّ من هبَّ ودبَّ، بنفس الأسلوب الذي اعتمده النحويون والبلاغيون واللغويون الذين استنبطوا لنا قواعد العربية، إذ كانوا كلّما سمعوا هيعةً من أحدٍ دوَّنوها واستنبطوا منها قاعدةً نحويةً أو صرفيةً أو بلاغيةً، وألزمونا بأن نضبط كلامنا بمقتضاها طيلة التأريخ الطويل اللاحق إلى يوم القيامة، وإلا لم نكن عرباً في رأيهم على الإطلاق، هذا مع افتئاتهم على النصِّ القرآنيِّ المقدَّس بأن يطبقوا عليه تلك القواعد ويستخرجون دلالاته على هذا الأساس.

السبب الثالث: تغيب في موسوعات التأريخ الإسلاميِّ أية بادرةٍ للتحليل، وإن كنت من جانبي أفضِّل أن لا يقوموا بمهمَّة التحليل والتفلسف حول الحادثة التأريخية المعيَّنة، لأنهم غالباً ما يثبتون غباءً منقطع النظير في هذا المجال، لكنه نقصٌ حاصلٌ في الموسوعات التأريخية نشير إليه على كلِّ حال.

السبب الرابع: إنهم لا ينتبهون إلى الفجوات التأريخية في الأحداث التي يسردونها في كتبهم التأريخية، فتكون النتيجة أنهم يروون لنا أحداثاً مهلهلةً لا يجمع بينها جامعٌ في الكثير من الأحيان، ففي هذه السنة ولد الحسين عليه السلام، وترك الحسين عليه السلام إلى حدثٍ آخر حصل في هذه السنة، ثمَّ عاد إلى الحسين عليه السلام بعد مئة صفحةٍ أو أكثر، فذكر حدثاً آخر متعلِّقاً به على عجلٍ، ثمَّ تركه، وعاد إليه في الجزء الثاني من تأريخه ليسرد لنا حدثاً ثالثاً بشكلٍ مفاجئٍ، وهكذا، وقل مثل هذا عن كلِّ الأحداث المتعلِّقة بالشخصيات الإسلامية الهامَّة في التأريخ.

اعتباطية السرد عند ابن الأثير

نكتفي بهذا القدر من النقد الموجَّه إلى الكتابة التأريخية في تراثنا الإسلاميّ، لنركِّز كلامنا حول ابن الأثير في تأريخه الكامل، وفي خصوص سرده لحادثة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام على وجه التحديد، لنرى مبلغ ما يحمله ذهن الرجل من الدهاء أو من الغباء، فلا يمكن أن يندَّ حاله عن هاتين الصفتين، لأنه يثير ضحك المتابع فعلاً أثناء القراءة.

كأنَّ ابن الأثير يضحك على عقل القارئ ويستخفُّ به في قوله:«خطب معاوية قبل مرضه وقال: إني كزرع مستحصد وقد طالت إمرتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي، ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه، كما أن من قبلي

كان خيراً مني، وقد قيل: من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، اللهمَّ إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي وبارك لي فيه! فلم يمض غير قليلٍ حتى ابتدأ به مرضه» الكامل في التأريخ ٢/ ١٤٠.

من دون أن يعلِّق ابن الأثير بكلمةٍ واحدةٍ على مثل هذا الكلام، كما لم يشر إلى المفارقة الكبيرة الماثلة في خطبة معاوية هذه، بل يلمِّح إلى أنَّ معاوية كان فعلاً قاصداً لهذا المعنى أثناء الخطبة، وأنه بمنزلة من يخرج من فيه مثل هذا الكلام.

لو كان معاوية بهذه الروح الإيمانية الرائعة لما كان يستحقُّ من التأريخ كلَّ هذا الذمّ، بل لكان من الصلحاء في أقلِّ تقديرٍ إن لم يكن من الأولياء العظام.

لا بأس، قد يكون الرجل معتقداً في معاوية مثل هذا الإعتقاد، فلنسامحه إذن عليه شريطة أن ينسجم مع نفسه إلى النهاية فلا يورد لنا من الأحداث المتعلِّقة به ما يتناقض مع هذه الروح الإيمانية الرائعة.

لكن كيف لابن الأثير أن لا يناقض نفسه، فها هو يواصل كلامه رأساً في السياق ذاته، ولا ينتظر أن يبتعد عن الكلام الآنف بسطرٍ واحدٍ، فيقول: «فلما مرض المرض الذي مات فيه دعا ابنه يزيد فقال: يا بني إني قد كفيتك الشد والترحال، ووطأت لك الأمور، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد، فانظر

أهل الحجاز فإنهم أصلك، وأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإنَّ عزل عاملٍ أيسر من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن رابك من عدوك شيءٌ فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم» الكامل في التأريخ ٢/ ١٤٠.

ما هذا الهراء أرجوك يا ابن الأثير، فهل ينسجم مثل هذا التفكير في رأس الخليفة الذي كان قبل ثانيةٍ ونصفٍ يتحدَّث بحديث الأولياء، فإذا كان هذا الخليفة مصاباً بالشيزوفرينا إلى هذه الدرجة فما بالك أنت أيها المؤرِّخ البارع لا تنتبه إلى هذه المفارقة، أم أنك تعتقد بأنَّ القارئ عبارةٌ عن طفلٍ صغيرٍ يستقبل ما يقال له من دون إدراكٍ أو تمحيص؟!

لو كان مكيافيلي حاضراً في في مجلس معاوية لفتح فاه متعجِّباً من هذا الدهاء والمكر، فمعاوية يتفوَّق عليه أضعافاً مضاعفةً بما ظنَّ ميكيافيلي أنه أبو عذرته من تقديم خطط الدهاء والمكر للحكام عبر التأريخ، فقد كشف معاوية لابنه الفاسد عن خططه السابقة التي كانت تصبُّ كلُّها في تمهيد السبيل أمام حكمه وحكم الفاسدين من بعده، فقد أخضع رقاب العرب، وكفاه مؤونة الشدِّ والترحال، وجمع له ما لم يجمعه أحدٌ، ولم يكن الخليفة الذي تكلَّم بكلام الأولياء قبل قليلٍ يفكر بأيِّ شأنٍ آخر يخصُّ الإسلام وأهل

الإسلام، فما بال ابن الأثير لم يزايل استقراره النفسيَّ عند هذه النقطة، ولم يشعر بشيءٍ من الصدمة النفسية إزاء هذا الحديث؟!

ويواصل السيد معاوية كلامه فيقول: «وإني لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة نفرٍ من قريش: الحسين عليه السلام بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر؛ فأما ابن عمر فإنه رجلٌ قد وقذته العبادة، فإذا لم يبق أحدٌ غيره بايعك؛ وأما الحسين عليه السلام بن علي فهو رجلٌ خفيفٌ ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه، فإنَّ له رحماً ماسةً وحقاً عظيماً وقرابةً من محمد صلى الله عليه وسلَّم، وأما ابن أبي بكرٍ فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله، ليس له همةٌ إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصةٌ وثب فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إرباً إرباً؛ واحقن دماء قومك ما استطعت» الكامل في التأريخ ٢/ ١٤٠.

دناءة ابن الأثير في كامله

هنا تظهر دناءة ابن الأثير بالفعل، فالرجل ليس بليداً إلى هذه الدرجة كما حسبناه في بداية الحديث، بل هو يتذرَّع بالبلادة من أجل تمرير الدهاء فقط، آية ذلك أنه سارع إلى نقد الرواية وتدخَّل هذه المرَّة، فنفى أن يكون عبد الرحمن بن أبي بكرٍ موجوداً على قيد الحياة في هذه الواقعة، لأنَّ وصفه في الرواية يشير إلى أنه رجلٌ متهتِّكٌ، فهو مشغولٌ

بالنساء واللهو، إذن فهو في صفة يزيد، فعلام يعترض مثل هذا الرجل على بيعة يزيد إلا لأنه طامعٌ بالخلافة لنفسه، لكن علام الدخول في كلِّ هذه الإشكاليات، فلننفِ وجوده في زمن معاوية، ولنقل إنه كان ميتاً في هذا الوقت، لتكون سمعة هذا البيت مصانةً من الخدش ولو على حساب الحقيقة التأريخية، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ نفي وجوده حياً في هذا الزمن تحصل منه فائدةٌ أخرى غير هذه، وهي أنَّ ابن الأثير يتخلَّص من التشكيك بشرعية ما فعله معاوية عن طريق الموقف المعارض لعبد الرحمن بن أبي بكرٍ، فهو ابن الخليفة الأوَّل على كلِّ حالٍ، فلا يبقى موقف أحدٍ مشكلاً بالنسبة إليه إلا موقف ابن عمر، وهو هيِّنٌ، لأنَّ أمره سيؤول إلى الموافقة في نهاية المطاف، أما ابن الزبير فتعساً له من منبوذٍ عند الجميع، فليس هو بمرضيٍّ عند أنصار موقف الحسين عليه السلام، ولا عند أنصار الموقف الآخر الذي مثَّله الإتجاه الآخر الغالب في التأريخ.

<u>قنبلة لابن الأثير</u>

الآن علينا أن نستعدَّ لهذه القنبلة التي سيفجرها ابن الأثير في المكان (الكامل في التأريخ ٢/ ١٤٠)، فعلينا أن نستقبلها برحابة صدرٍ ونستجمع شجاعتنا كلَّها لكي لا نموت، كما أنَّ علينا واجباً آخر، وهو أن نمسك برؤوسنا جيداً كي لا يتطاير ما فيها من بقية العقل، فيسرد علينا ابن الأثير حال معاوية وهو في الإحتضار، يقول ابن الأثير:«ولما اشتدت علته وأرجف به قال لأهله: احشوا عيني إثمداً وادهنوا رأسي. ففعلوا وبرقوا

وجهه بالدهن ثمَّ مهِّد له فجلس وأذن للناس، فسلموا قياماً ولم يجلس أحدٌ، فلما خرجوا عنه قالوا: هو أصحُّ الناس. فقال معاوية عند خروجهم من عنده:

وتـجـلدي للشامتين أريهمو أني لريب الدهر لا أتضـعضعُ

وإذا المنـية أنشبت أظفـارهـا ألـفـيت كـلَّ تمـيـمةٍ لا تنفــعُ

وكان به التفاتاتٌ، فمات من يومه فلما حضرته الوفاة قال: إنَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلَّم، كساني قميصاً فحفظته، وقلَّم أظفاره يوماً فأخذت قلامته فجعلتها في قارورةٍ، فإذا متُّ فألبسوني ذلك القميص واسحقوا تلك القلامة وذروها في عينيَّ وفمي فعسى الله أن يرحمني ببركتها.. وقال لأهله: اتقوا الله فإنه لا واقي لمن لا يتقي الله، ثمَّ قضى وأوصى أن يردَّ نصف ماله إلى بيت المال، كأنه أراد أن يطيب له الباقي لأنَّ عمر قاسم عماله؛ وأنشد لما حضرته الوفاة:

إن تناقش يكن نقاشك يا ر بِّ عذاباً لا طوق لي بالعذابِ

أو تجاوز فأنت ربٌّ صفوحٌ عن مسيءٍ ذنوبه كالترابِ

بماذا يختلف حال معاوية وهو يحتضر عن حال الأولياء، خاصَّةً في تلك الفقرة التي يوصي بها أهله بتقوى الله لأنه لا واقي من العذاب إلا هو، وفي الفقرة الأخرى التي يقول فيها ابن الأثير أنه أمر أن يردَّ نصف ماله إلى بيت مال المسلمين لأنه أراد أن يطيب له الباقي، اقتداءً بفعل عمر إذ قاسم عماله.

وكم يحترم هذا الخليفة الذي افترى عليه التأريخ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، فقد اختطف قلامةً من أظفار رسول الله ليحتفظ بها لمثل هذا اليوم العصيب، كي تسحق وتذرى في فمه وعينيه، بعد أن يلبسوه الثوب الذي لامسته كفا رسول الله، مع أنه قاتل ابن عمِّ النبيِّ ووصيَّه، ومهَّد الوضع السياسيَّ المنحرف الذي سيقتل ابن بنت رسول الله وجميع أهله وصحبه في كربلاء.

فهل هناك مهزلةٌ علميةٌ في كتابة التأريخ كتلك التي مثَّلها مؤرِّخونا رحمهم الله، فاقرؤوا ما كتبوا واستلقوا على ظهوركم ضاحكين!

❊ ❊ ❊

روافد البحث

١- زهر الآداب للحصري

٢- مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم

٣- أمالي الصدوق للشيخ الصدوق

٤- اهداف نهضة سيد الشهداء في كلمات الفقهاء للشيخ عبد الرزاق النداوي

٥- منهج الصدر، من تقريرات اسماعيل الوائلي

٦- أضواء على ثورة الامام الحسين للسيد محمد الصدر

٧- شذرات من فلسفة تاريخ الامام الحسين للسيد محمد الصدر

٨- تمام الدين وكمال النعمة للشيخ الصدوق

٩- مستدرك سفينة البحار للعلامة المجلسي

١٠- علل الشرائع للشيخ الصدوق

١١- مناقب آل ابي طالب لابن شهر آشوب

١٢- بحار الانوار للعلامة المجلسي

١٣- الاختصاص للشيخ المفيد

١٤- مقاتل الطالبيين لابي الفرج الاصفهاني

١٥- نحو أخلاق وجودية، ميرلوبنتي

١٦- الكامل في التأريخ لابن الأثير

١٧- الملحمة الحسينية للشهيد مطهري